مجلة اللسانيات التطبيقية ISS N : 2588-1566 الصفحات: 72-89
المجلد: 06 العدد: 01 (عدد خاص) السنة: 2022

حلب في مؤلفات الدكتور أحمد فوزي الهيب

Aleppo in the writings of Prof. Dr. Ahmed Fawzi Al-Hayeb

محمد قجّة*
جمعية العاديات(سوريا)
m-kujjah@hotmail.com

تاريخ الإرسال:2021/12/13	تاريخ القبول: 2021/12/22

الملخص:

تتناول هذه الدراسة العلاقة بين الدكتور أحمد فوزي الهيب والكتب الأربعة الآتية التي ألّفها أو حقّقها - رحمه الله- حول مدينة حلب تاريخياً وثقافياً و اقتصادياً وحضارياً، وهي:

- الحركة الشعرية في زمن المماليك في حلب الشهباء (تأليف)
- الحركة الشعرية في زمن الأيوبيين في حلب الشهباء (تأليف)
- ديوان ابن الوردي(تحقيق)
- الدرّ المنتخب في تكملة تاريخ حلب لابن خطيب الناصرية (تحقيق)

وقد أوضحت بيئة العلم والثقافة في العصر الأيوبي والعصر المملوكي في حلب. وهي البيئة التي أنتجت هذا الجهد الثقافي الكبير في التأليف والشعر، وذلك ما نعده توثيقاً لمرحلة زمنية معينة.

والكتابان الأول والثاني تأليف من قبل الدكتور الهيب، ونال على أساسهما شهادة الماجستير والدكتوراه. والكتابان الثالث والرابع تحقيق قام به الدكتور الهيب، والكتب الأربعة وثيقة الصلة بمدينة حلب ودورها التاريخي والثقافي والاقتصادي والحضاري، وبخاصة في العصرين الأيوبي والمملوكي اللذين داما أكثر من ثلاثة قرون، وكانت حلب واحدة من أهم المدن في تلك الفترة على المستوى الإقليمي والعربي والعالمي.

الكلمات المفتاحية: أحمد فوزي الهيب، حلب، المديح النبوي، ابن جابر الأندلسي

* المؤلف المرسل: محمد قجّة.

Abstract :

The research approaches the relationship between Dr. Ahmed Fawzi Al-Haib and these four books which are focused on the city of Aleppo, in terms of its history, cultural, economy and civilization in the Ayyubid and Mamluk eras in Aleppo, when the intellectual environment had created such great writings and poetry, and this is what we could consider a periodical documentation.

The research was based on the following four books:

- Ahmad Fawzi Al-Haib- The Poetic Movement in Aleppo at the Mamluk era
- Ahmad Fawzi Al-Haib- The Poetic Movement in Aleppo at the Ayyubid era
- Ibn al-Wardi- Al-Diwan- edited by Ahmad Fawzi Al-Haib
- IbnKhatib al-Nasiriyah Al-Durr Al-Muntakhab fi TakmilatTarikhHalab (Selected Jewels of Aleppo History) - edited by: Ahmad Fawzi Al-Haib

Dr. Al-Haib had authored the first and second books, which were based on academic researches for his Masters and PhD degrees, while he edited the third and fourth books.

Those four books are closely related to the city of Aleppo and its historical, cultural, economic and civilizational role, mainly during Ayyubid and Mamluk eras which lasted for more than three centuries, when Aleppo was one of the most important cities regionally and worldwide.

Keywords: Ahmed Fawzi Al-Hayeb, Aleppo, praise of the Prophet, IbnJaber Al-Andalusi

مدخل:

الصديق الدكتور أحمد فوزي الهيب ابن بارّلمدينة حلب المحروسة التي ولدت مع التاريخ البشري، ويعود عمرها الآثاريإلى عام 12000 ق.م. وساعدها موقعها بين المتوسط وحوض الفرات أن تكون مركزاً تجارياً عالمياً، وممرّاًإجبارياً للقوافل بين شرق آسيا وأوروبا مروراً بالمدن الاستراتيجية في ذلك الطريق مثل سمرقند والري والموصل، ومن حلب إلى ميناء اسكندرون على البحر المتوسط.

وقد شهدت حلب قيام ممالك عظيمة فيها منذ الألف الثالث ق.م، ولعل أشهرها مملكة يمحاض وعاصمتها حلب 2000 ق.م.

وتوالى عليها الحثيون والآشوريون والمصريون القدماء والكلدان والفرس والإغريق والرومان، إلى أن دخلت في النطاق العربي الإسلامي الذي استوعب كل الحضارات السابقة بمرونة وتسامح.

ولذلك كان من البداهة أن يتجه الدكتور أحمد فوزي الهيب إلى مدينته العريقة المحبوبة يستقرئ تاريخها ويتوقف عند محطات فيه.

وهذه العصور الإسلامية شهدت الخلافة الأموية فالعباسية فدولة المماليك ثم الدولة العثمانية. وقد اخترت أربعة كتب تتصل بمدينة حلب ألّفها أو حققها الدكتور أحمد فوزي الهيب حول: العصر الأيوبي- المملوكي-ابن الوردي- ابن خطيب الناصرية الحلبي.

أولاً- وقد اختار الصديق الدكتور أحمد فوزي الهيب المرحلة الأيوبية وسلطانها المشهور الظاهر غازي ملك حلب؛ لكي يقدم لنا دراسة وافية عن ذلك العصر موزعة كالتالي من كتاب:

(الحركة الشعرية زمن الأيوبيين في حلب الشهباء)

وهو من كتاب الحركة الشعرية زمن الأيوبيين في حلب الشهباء تمت الطبعة الثانية خلال احتفالية حلب عاصمة للثقافة الإسلامية- مطبعة جامعة حلب 2006

1.دراسة البيئة: الجغرافية- حلب قبل الأيوبيين- قبل الفتح الإسلامي- بعد الفتح الإسلامي- زمن الأيوبيين- عهد الظاهر غازي- عهد العزيز- عهد الناصر الثاني (ص11 وما بعدها).

البيئة الاجتماعية: بنية المجتمع-أهل الدولة- العلماء والأدباء- العامة-أهل الذمة- السمات العامة للحياة الاجتماعية.

2.الحياة الثقافية في حلب قبل الأيوبيين (ص47 وما بعدها).

العلوم الإسلامية- علوم اللغة العربية-التاريخ- الفلسفة- الجغرافياوالفلك والرياضة و الطب.

دور العلم: المدارس- المساجد- خزائن الكتب- مجالس العلم و الأدب (ص63).

3.الشعر والشعراء: مضمون الشعر-أغراضه: المديح، الفخر،الرثاء، الإخوانيات، الهجاء، النسيب، الخمرة، حلب في الشعر، الوصف، التصوف، الحكمة، الألغاز والفكاهة(ص73).

الخصائص المعنوية: الشعر التقليدي والمحدث، الشكل (ص165).

الصياغة الفنية(ص175) الألفاظ والتراكيب- الصورة الشعرية- المحسنات البديعية- الموسيقا الشعرية.

الشعراء: السهروردي- ابن خروف- ابن ممّاتي- القاسم الواسطي- راجح الحلّي- الشعراء- القفطي- ابن العديم.

من الشعر في العصر الأيوبي في حلب:

عيسى بن سعدان (ص129)

يا حبّذا التلعات الخضر من حلب وحبّذا طلل بالسفح من طلل
طالَ المقام فواشوقاً إلى وطن بين الأحصّ وبين الصّحصح الرمل

ابن خروف الشاعر القادم من الأندلس: (ص215)

بهاءَ الدين والدّنيا ونور العلم والأدب
سألت مخافة الأنواء من نعماك جلدَ أبي
وجدك عارف أني خروف بارع الأدب
حلبت الدهر أشطره وفي حلبٍ صفا حلبي

ثانياً- والكتاب الثاني الذي نحن بصدد عرضه:

(الحركة الشعرية في حلب زمن المماليك)

وهو كذلك قد أعدنا طباعته خلال احتفالية حلب عاصمة الثقافة الإسلاميةعام 2006 بعد موافقة المؤلف. علماً بأن الطبعة الأولى كانت في مؤسسة الرسالة في بيروت عام 1986.

ويقول الدكتور أحمد فوزي الهيب في تقديمه لكتابه حول العصر المملوكي:

العصر المملوكي:

كان العصر المملوكي امتداداً طبيعياً للعصر الأيوبي الذي سبقه، ورث عنه البلاد وما يهددها من أخطار صليبية ومغولية وغيرها، وقد استطاع هؤلاء المماليك أن يردوا هذه الأخطار بمقدرة فائقة، وأن يكونوا حماة للدين والبلاد والعباد قرابة قرون ثلاثة من عام (648هـ/1250م) حتى (923هـ/1517م).

ولم يظهر هؤلاء المماليك على مسرح الحياة السياسية الإسلامية بظهور (شجر الدرّ)، وإنما ظهروا قبل ذلك بكثير، منذ أن استجلبهم المعتصم بالله الخليفة العباسي، ليصدّ بهم الخطر الفارسي الذي استشرى زمن أخيه المأمون، ثم صار استجلاب المماليك سنّة متبعة عند من أتوا بعد المعتصم مثل الطولونيين والأخشيديين والفاطميين والزنكيين ثم الأيوبيين، وذلك لأن أهل البلاد الواقعة في حوزة الأيوبيين، وقد بعُدَ عهدهم بالجندية انتهوا منذ زمن طويل إلى أن لا يصلحوا للخدمة العسكرية، وكثيراً ما كانوا يُدخلون في خدمتهم جماعات برمتها من الأتراك الهاربين من وجه المغول إلى الشرق الأدنى، وما هي إلاّ فترة وجيزة حتى نشأ من بين زعماء هؤلاء المماليك -كما حصل غيرمرة في تاريخ الإسلام- جيل من الحكام جديد، بسط سلطانه على مصر وسورية حتى الفتح العثماني:

وقد دأب سلاطين الأيوبيين وملوكهم على شراء المماليك، وهم صغار من الرقيق الأبيض -وبخاصة من بلاد القفجاق وما وراء النهر- واتخذوا منهم قوة يعتمدون عليها في تثبيت حكمهم والوقوف في وجه خصومهم.

وتتوزع موضوعات العصر المملوكي في حلب على النحو التالي:

1.التيارات السياسية والاقتصادية والاجتماعية والفكرية في حلب (ص21).

2.أغراض الشعر موضوعاته في ذلك العصر(ص85):

الاتجاه الديني- المديح النبوي- البديعيات- التغزل النبوي- الزهد والتصوف- الدعاء- التحدث بآلاء الله- تسجيل الشعراء لمشاعرهم تجاه اليهود- يقظة دينية- النصح- الشكوى- الحكمة- النقد الاجتماعي- الهجاء- نظم الأحداث- الفخر- التغزل- رثاء المدن- وصف أدوات البيئة.

3.الموضوعات التقليدية واتجاهات التجديد(ص184):

الإخوانيات- المدح- الرثاء- الهجاء- التغزل- الخمريات- الوصف- الشعر والأوطان- النظم العلمي- الألغاز- اتجاهات التجديد.

4.دراسة تحليلية لعناصر الشكل في شعر حلب في العصر المملوكي (ص337):

لغة الشعر وموسيقاه- أوزان الشعر- القافية- بناء القصيدة- الصورة الشعرية- الصنعة البديعية- مذهب التجنيس- مذهب التورية.

****

وقد كثر شعر المديح النبوي في ذلك العصر، ومن أبرزرجاله ابن جابر الأندلسي نزيل حلب، ومن ذلك قوله (ص104):

إليك رسولَ الله جبنا الفلا ولولاك لم نهوَ العقيق ولا الرندا
وخْداولولا اشتياقي أن أراك بمقلتي لما كنت أشتاق الغوير ولا نجدا
ولولا رجاء القلب من ذلك الحمى لما اخترت عن أهلي وعن وطني بُعدا
ومن أجلكم أصبو إذا هبت الصبا تجرّ صباحاً فوق أرضكم بُردا

وما افترّ ثغر البرق من أرض بارقٍ لعيني إلا فاض دمعي له وجدا
ولا أستلذّ العيش في غير أرضكم ولا أشتهي من غير مائكمُ وِردا

كما أن ابن جابر حمل معه من الأندلس تجربة الموشح، ومن ذلك قوله (ص355):

لم يبق فيّ اصطبارُ
مذ خلّفوني وساروا
وللحبيب أشاروا
جار الكرام فجاروا
للّه ذاك الأوار
بانوا فما الدارُ دارُ

يا بدر أهلك جاروا وعلّموك التجري

ومثل ذلك فحمّس محمد بن عمر النصيبي(ص355):

غبتم فطرفي من الهجران ما غمضا ولم أجد عنكمُ لي في الهوى عوضا
فيا عذولاً بعذل اللّوم قد نهضا للعاشقين بأحكام الغرام رضا

فلا تكن يا فتى بالعذل معترضا

ثالثاً:والكتاب الثالث الذي اعتمدته هو:

ديوان ابن الوردي

من تحقيق الدكتور أحمد فوزي الهيب، الطبعة الثانية 2010 الناشر: الدار العامرة/ دمشق.

وابن الوردي "عمر بن المظفر" المتوفى 749هـ/1349م. أبرز شعراء العصر المملوكي، إلى جانب صفي الدين الحلي في العراق، وابن نباتة في مصر. ويمثل هذا الديوان روح الحياة السياسية والاقتصادية والثقافية في حلب خلال العصر المملوكي وفترة ابن الوردي.

وقد أظهر التحقيق الممتاز الذي نهض به الدكتور أحمد فوزي الهيب لهذا الديوان أهميته ودوره المرحلي، وتوثيق بعض الأحداث في عصره، ومن أهمها وصف الطاعون الأسود الذي ضرب أكثر دول العالم في ذلك الوقت وبخاصة في أوروبا والشرق الأوسط. و قد مزج ابن الوردي عرضه عن المرض الخطير بين النثر والشعر الذي هو أقرب إلى النظم التعليمي، الذي كان يجيده ابن الوردي، كما في ألفيته المعروفة عن الفقه، في أكثر من خمسة آلاف بيت من النظم التعليمي.

وهذا جزء من عرضه لمرض الطاعون كما ورد في ديوانه (ص79).

(وله رحمه الله تعالى) رسالة النبا عن الوبا.

الله لي عدة، من كل شدة، حسبي الله وحده، أليس الله بكاف عبده، اللهم صلِّ على سيدنا محمد وسلم، ونجنا بجاهه من طعنات الطاعون وسلم، طاعون روّع وأمات.

وابتدأ خبره من الظلمات، ياله من زائر، من خمسة عشر دائر، ماصِين عند الصين، ولا مُنع منه حصن حصين، سلَّ هندياً في الهند، واستند على السند بكفيه وشبّك، على بلاد أُزبك، وكم قصم من ظهر، فيما وراء النهر، ثم ارتفع

ونجم، وهجم على بلاد العجم، فأوسع الخطى إلى أرض الخطا، وقرم القرم، ورمى الروم بجمر مضطرم، وجر الجرائر، إلى قبرص والجزائر، ثم قهر خلقاً بالقاهرة، وتنهت عينه لمصر {فَإِذَا هُم بِٱلسَّاهِرَةِ}[النازعات:14]، وسكن حركة الإسكندرية، فعمل شغل الفقراء الحريرية، وأخذ من دار الطراز طراز الدار، وصنع بصنّاعها ما جرت به الأقدار.

وقال في وباء الطاعون:

اســـــــكندريةُ ذا الوبـــــــا سَـــبُعٌ يمـــدُّ إليـــكِ ضـــبعَهْ
صـــــبراً لقســـــمتِهِ التـــــي تركـــتْ مـــنَ الســـبعينَ ســـبعَهْ

ثم تيمم الصعيد الطيب، وأبرق على بَرقَة منه صيّب، ثم غزا غزّة، وهزَّ عسقلان هزة، وعك إلى عكا، واستشهد بالقدس وزكّى، فلحق من الهاربين الأقصى بقلب في الصخرة، ولولا فتح باب الرحمة لقامت القيامة في كره، ثم طوى المراحل، ونزل بالساحل، فصاد صيدا، وبَغَتَ بيروت كيدا، ثم سدد الرِشْق إلى دمشق، فتربع وتميّد، وفتك كل يوم بألف أو أزيد، فأقل الكثرة، وقتل خلقاً ببترة، فالله تعالى يجري دمشق على سنتها، ويطغي لفحات ناره عن نفحات جنتها.

أصـــــــلحَ اللهُ دمشـــــــقاً وحماهـــــا عَـــــنْ مســـــبَّهْ
نفسُـــــها خسَّـــــتْ إلـــــى أنْ تقتـــــلَ النـــــاسَ بحبَّـــــهْ

ثم مزَّ المِزَة، وبرز إلى بَرْزة، وركب تركيبَ مزجٍ بعلبك، وأنشد في قارة "قفا نبك"،و غسل الغَسُولة، وبلغ من كسوف شمس شَمَسَيْن سوله، وطرح على

الجُبَّة بُرشَه، وأزبد على الزَبدَاني نعشه، ورمى حمص بخلل، وصرفها مع علمه أن فيها ثلاث علل، ثم طلق الكنَّة في حماة، فبرَّدت أطراف عاصيها من حُماه.

يـا أيهـا الطـاعونُ إنَّ حمـاةَ مِـنْ خيـر الـبلادِ ومِـنْ أعـزَّ حصـونِها
لا كنـتَ حـينَ شَـممتَها فسـمَمْتَها ولثمـتَ فاهـا آخـذاً بقرونهـا

ثم دخل معرة النعمان، فقال لها: أنت مني في أمان، حماةُ تكفي في تعذيبك، فلا حاجة لي بك.

رأى المعـرةَ عينـاً زانَهـا حَـوَرٌ لكـنَّ حاجبَهـا بـالجوْرِ مقـرونُ
مـاذا الـذي يصنعُ الطاعونُ في بلـدٍ في كـلِّ يـومٍ لـهُ بـالظلمِ طـاعونُ

ثم سرى إلى سَرْمين والفوعة، وشعث على السنة والشيعة، وسنّ للسنة أسنته شُرَّعاً، وشيَّع في بلاد الشيعة مصرعاً، ثم أنطى أنطاك بعض نصيب، ورحل عنها حياء من نسيانه ذكرى حبيب، ثم قال لشَيْرَز ولحارم لا تخافا مني، فأنتما من قبل ومن بعد في غنىً عني، فالأمكنة الردية، تصح في الأزمنة الوبية، وأخذ من أهل البابأهل الألباب، وباشر، تل باشر، وذلل ذلول وقصد الوهاد والتلاع، وقلع خلقاً من القلاع، ثم طلب حلب، ولكنه ما غلب، فهو -ولله الحمد- أخف وطأة، ولم أقل {كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ}[الفتح:29].

إنَّ الوبـــا قـــدْ غلبـــا وقـــدْ بـــدا فـــي حلبـــا
قـــالوا لـــه: علـــى الـــورى كـــافٌ ورا، قلـــت: وبـــا

ومن الأقدار، أنه يتتبع أهل الدار، فمتى بصق واحد منهم دماً، تحقق كلهم عدما، ثم يسكن الباصق الأجداث، بعد ليلتين أو ثلاث.

سألتُ بارئَ النسمْ في دفعِ طاعونٍ صَدَمْ
فمنْ أحسَّ بلعَ دمْ فقدْ أحسَّ بالعدمْ

اللهم إنه فاعل بأمرك فارفع عنا الفاعل، وحاصل من عند مَنْ شئت فاصرف عنا الحاصل، فمن لدفع هذا الهول، غيرك يا ذا الحول

اللهُ أكبرُ من وباءٍ قدْ سبا ويصولُ في العقلاءِ كالمجنونِ
سنَّتْ أسنتُهُ لكلِّ مدينةٍ فعجبتُ للمكروهِ في المسنونِ

كم دخل إلى مكان، فحلف لا يخرج إلا بالسكان، ففتش عليهم بسراج، وهذا الذي جلب لأهل حلب الانزعاج، استرسل ثعبانه وانساب، وسمّي طاعون الأنساب، وهو سادس طاعون وقع في الإسلام، وعندي أنه الموت الذي أنذر به نبينا عليه أفضل الصلاة والسلام.

حلبٌ -واللهُ يكفي شرَّها- أرضٌ مشقهْ
أصبحتْ حيَّةَ سوءٍ تقتلُ الناسَ ببزقَهْ

فلو رأيت الأعيان بحلب، وهم يطالعون من كتب الطب الغوامض، ويكثرون في علاجه من أكل النواشف والحوامض، قد تنغص عيشهم الهني، بملاطخة مسلم الطينة الطين الأرمني، وقد لاطف كل منهم مزاجه وعدّل، وبخروا بيوتهم بالعنبر والكافور والسعد والصندل، وتختموا بالياقوت، وجعلوا البصل والخل

والصحنا من جملة الأدم والقوت، وأقلوا من الأمراق والفاكهة، وقربوا إليهم الأترنج وما شابهه، ولو شاهدت كثرة النعوش وحملة الموتى، وسمعت بكل قطر من حلب نعياً وصوتاً، {لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَاراً}[الكهف:18]،وأبيت فيهم قراراً، (فلقد كثرت فيها أرزاق الجنائزية، فلا رزقوا، وعاشوا بهذا الموسم، وعرقوا من الحمل، فلا عاشوا ولا عرقوا، فهم يلهون ويلعبون، ويتقاعدون على الزبون).

اســـــودَّتِ الشـــــهباءُ فـــــي عينـــيَّ مِـــنْ رمـــمٍ وغـــشِ
كـــادت بنـــو نعـــشٍ بهـــا أنْ يلحقـــوا ببنـــاتٍ نعـــشِ

فنستغفر الله تعالى من هوى النفوس، فهذا بعض عقابه، ونعوذ برضاه من سخطه وبمعافاته من عذابه.

قـــالوا: فســـادُ الهـــواء يُـــردي فقلـــتُ: يـــردي هـــوى الفســـادِ
كـــم ســـيئاتٍ وكـــم خطايـــا نـــادى علـــيكم بهـــا المنـــادي

ويورد الدكتور أحمد فوزي الهيب القصيدة المشهورة المعروفة باسم: "لامية ابن الوردي" وهي قصيدة تربوية اجتماعية حكيمة(ص406):

لامية شيخ الإسلام ابن الوردي رحمه الله:

اعتـــزل ذكْـــر الأغـــاني والغـــزلْ وقـــلِ الفصـــلَ وجانـــبْ مَـــنْ هـــزل
ودعِ الذكـــرى لأيـــام الصِّبـــا الصِّبـــا نجـــمٌ أَفَـــلْ
إنَّ أحلـــى عيشـــةٍ قضيتهـــا ذهبـــتْ لذّاتُهـــا، والإثـــمُ حـــلْ
واتـــركِ الغـــادةَ، لا تحفـــلْ بهـــا تُمـــسِ فـــي عـــزّوتُرْفَعْ وتُجَـــلْ
وَالْـــهَ عنْآلـــة لهـــوٍ أطربَـــتْ وعـــنِ الأمـــرد مـــرتج الكفـــلْ
إن تبَـدّى تنكسـفْ شـمسُ الضـحى وإذا مـــا مـــاس يُـــزري بالأســـلْ
زادَ إنْ قِسنـــاه بالبـــدرِ سنـــا وعدلنـــاهُ بغصـــنٍ فاعتـــدلْ
وافتكـر في منتهى حسـنِ الـذي أنـــتَ تهـــواهُ تجـــدْ أمـــراً جلـــلْ

واتَّـــقِ اللهَ فَتقـــوى اللهِ مَـــا ... جـــاوزَتْ قَلـــبَ امـــرئٍ إلا وَصَـــلْ
لَيـــسَ مَـــنْ يَقطـــعُ طُـــرقاً بَطـــلاً ... إنمـــا مَـــنْ يتَّـــقِ اللهَ بَطَـــلْ
واهجـــرِ الخمـــرةَ إنْ كنـــت فتـــىً ... كيـــف يســـعى في جنـــونٍ مَـــنْ عقـــلْ
ســـيعيدُ اللهُ كـــلاً مـــنهمُ ... وســـيجزي فـــاعلاً مـــا قـــدْ فعـــلْ
أي بنـــيَّ اســـمعْ وصـــايا جَمعـــتْ ... حكمـــاً خُصـــتْ بهـــا خيـــرُ الملـــلْ
اطلـــب العلـــمَ ولا تكســـلْ فمـــا ... أبعـــدَ الخيـــرَ علـــى أهـــلِ الكســـلْ
واحتفـــل للفقـــهِ فـــي الـــدينِ ولا ... تشـــتغلْ عنـــهُ بمـــالٍ أو خَـــوَلْ
واهجـــر النـــومَ وحصِّـــلْه فَمـــنْ ... يعـــرفِ المطلـــوبَ يحقـــرْ مـــا بـــذلْ
لا تقـــلْ قـــدْ ذهبـــتْ أربابُـــهُ ... كـــلُّ مـــنْ (ســـارَ على الـــدرب وصـــلْ)
في ازديـــادِ العلـــمِ إرغـــامُ العِـــدى ... وجمـــالُ العلـــمِ -يـــا صـــاح- العمـــلْ
دارِ جـــارَ الـــدارِ إنْ جـــارَ وإنْ ... لـــم تجِـــدْ صـــبراً فمـــا أحلى النقـــلْ
جانـــبِ الســـلطانَ واحـــذرْ بطشَـــهُ ... لا تخـــاصمْ مَـــنْ إذا قـــالَ فعـــلْ
لا تـــلِ الحكـــمَ وإنْ هـــم سألـــوا ... رغبـــةً فيـــكَ وخـــالفْ مَـــنْ عـــذلْ
إنَّ نصـــفَ النـــاسِ أعـــداءٌ لمـــنْ ... ولـــيَ الأحكـــامَ، هـــذا إنْ عـــدلْ
فهْـــوَ كالمحبـــوسِ عـــن لذَّاتِـــهِ ... وكـــلا كفيـــه فـــي الحشـــرِ تُغَـــلْ
إنمـــا النقـــصُ والاستثقـــالُ فـــي ... لفظـــةِ القاضـــي لـــوعظٍ ومثـــلْ
لا تـــوازى لـــذةُ الحكـــمِ بمـــا ... ذاقَهـــا المـــرءُ إذا المـــرءُ انعـــزلْ
والولايـــاتُ وإنْ طابَـــتْ لمـــنْ ... ذاقَهـــا فالســـمُّ فـــي ذاكَ العســـلْ
نَصَـــبُ المنصـــبِ أوهـــى جلَـــدي ... وعنـــائي مِـــنْ مـــداراةِ السفـــلْ
قصِّـــرِ الآمـــالَ فـــي الدنيـــا تفـــزْ ... فـــدليلُ العقـــلِ تقصيـــرُ الأمـــلْ
إنَّ مَـــنْ يطلبُـــهُ المـــوتُ علـــى ... غِـــرَّةٍ منـــهُ جـــديرٌ بالوجـــلْ
غِـــبْ وزرْ غِبّـــاً تـــزدْ حبـــاً فَمَـــنْ ... أكثـــرَ التـــردادَ أضـــناهُ الملـــلْ
خـــذْ بنصـــلِ السيفِ واتـــركْ غِمْـــدَهُ ... واعتبـــرْ فضـــلَ الفتـــى دونَ الحلـــلْ
حبُّـــكَ الأوطـــانَ عجـــزٌ ظاهـــرٌ ... فـــاغتربْ تلـــقَ عـــنِ الأهـــلِ بـــدلْ

فبمكـــثِ المـــاءِ يبقـــى آسنـــاً وسُـــرى البـــدر بـــهِ البـــدرُ اكتمـــلْ
أيهـــا العائـــبُ قـــولي عبثـــاً إنَّ طيـــبَ الـــوردِ مـــؤذٍ بالجُعَـــلْ

رابعاً: الكتاب الرابع:

الدرّ المنتخب في تكملة تاريخ حلب

تأليف: ابن خطيب الناصرية الحلبي، تحقيق الدكتور أحمد فوزي الهيب، مؤسسة عبد العزيز سعود البابطين الثقافية- الكويت 2018.

وهذا الكتاب يكمل كتابابن العديم الهام (بغية الطلب في تاريخ حلب) والجهد الذي بذله ابن الناصرية الحلبي يحتاج إلى مؤسسة لكي تنهض به وكذلك الجهد الذي بذله المحقق الدكتور أحمد فوزي الهيب.

وقد أورد الدكتور الهيب في تقديمه للكتاب أهميته وأهمية العصر الذي تم فيه تأليف الكتاب، ومن ذلك (ص9-11-13-17).

وقد كثرت المؤلفات في هذا العصر كثرة مذهلة، ونهضت نهضة بعيدة المدى، حتى عدّ ازدهار التأليف أبرز آثاره، فمن يقرأ صفحات هذا العصر يجد توفر علمائه على التأليف واستغراقهم فيه استغراقاً حجبهم عن شؤون الحياة وشواغلها، ولم يقنع أحدهم بأن ينسب إليه كتاب واحد، بل تطاولت هممهم إلى أن يخلفوا تراثاً واسعاً متعدد الموضوعات، ومنهم من ألّف في الهيّن الحقير من الشؤون، ومنهم من ابتدع التأليف في مباحث وعلوم لم يألف الناس مثلها، حتى بلغت مؤلفات بعض العلماء في هذا العصر عدة مئات من الكتب.

ومن أهم الأسباب التي دعت إلى نهضة التأليف في هذا العصر رغبة العلماء في تعويض ما خسرته العربية في الشرق أو الغرب وتنافسهم في ذلك، كما كان دور المماليك واحداً من أهم هذه الأسباب، وذلك لأنهم أكثروا من بناء المدارس والمكتبات والمساجد بعامة، وهم الذين قدّروا المدرسين وخلعوا عليهم وصدرت

منهم توقيعات بتعيينهم، وهذه التوقيعات تضفي على هؤلاء العلماء ألقاب التفخيم والتعظيم، وتقدم إليهم.

وقد شارك بعض هؤلاء السلاطين في النشاط العلمي والأدبي، مثل بيبرس و والأشرف خليل، والناصر محمد بن قلاوون والسلطان مؤيد شيخ و برسباي و برقوق و جقمق و قانصوه الغوري وغيرهم.

وأما الذي دفع المماليك إلى حب العربية وأدبها وعلومها على الرغم من عجمتهم، فهو أنها لغة الدين الإسلامي الذي وصلوا إلى عرش السلطنة باسمه، وأعطاهم في الناس الولاء والسمع والطاعة، كما كان لنشأتهم في الرق أثرها في الإقبال على الشعراء وتشجيعهم، ليشيدوا بمآثرهم، كي ينسى الناس ماضيهم، ولا يذكروا غير حاضرهم المجيد، ولهذا شجع بيبرس الشعراء فالتفوا حوله، وتغنوا بإصلاحاته وجهاده، واقتدى به في ذلك غيره.

لذلك كله كان لهذا العصر فضل كبير في بقاء العربية لغة حية للحياة والدولة، وعوّض كثيراً من الخسائر التي لحقت الحضارة العربية الإسلامية في المشرق والمغرب، وذلك بما اتسم به من خصب ثقافي ونضج فكري وغزارة في التأليف والتصنيف، ولا يضيره أن عدداً من هذه المؤلفات قد قامت على النقل والجمع، وذلك لأن كثيراً من هذه الأصول المنقول منها قد ضاعت، ولم يبق منها إلا ما حفظته مؤلفات هذا العصر منها.

وأما حلب الشهباء، فهي ليست مدينة كغيرها من المدن، إنها أقدم مدينة مأهولة في العالم كله كما جاء في تقرير اليونسكو الصادر في 2013/3/30، وهي أول عاصمة للثقافة الإسلامية مع مكة المكرمة وأصفهان، ولا غرو في ذلك فقد كانت زمن سيف الدولة الحمداني (303-356هـ) عروس المدن جهاداً وعلوماً وآداباً، ولم تشغله حروبه المستمرة مع الروم عن أن يجعل حلب مجمعاً علمياً راقياً، ضمَّ قمماً شامخة في جميع الفنون.

وهكذا ارتفعت رايات السلطنة المملوكية على حلب، وسرعان ما استعادت مكانتها من جديد، وظلت من أكبر مدن الشام وممالكها، وذلك لموقعها على الثغور الشمالية لدولة المماليك، فضلاً عن اتساع مساحتها التي ضمت عدداً كبيراً من النيابات الصغرى التي ليس لها مثيل في بقية نيابات الشام، سواء أكانت هذه النيابات داخل حدود بلاد الشام أم خارجها من جهة الشمال داخل بلاد الأرمن، وفضلاً عن هذه النيابات فإن لها ولايات كثيرة تابعة لها، الأمر الذي جعلها محوراً لكثير من الأحداث الهامة بين المماليك من ناحية، وأعدائهم أو منافسيهم مثل التتار والتركمان والعثمانيين من جهة أخرى، كما كان نائبها ذا منزلة أعلى من أمثاله نواب المدن الأخرى وكذلك كان نائب قلعتها، ولا غرو في ذلك، فقد كانت تمثل الجبهة العسكرية الشمالية للمماليك، تجتمع فيها الجيوش المحاربة من جميع أنحاء السلطنة لتنطلق نحو الأعداء الخارجيين من تتار وصليبيين والمتمردين الداخليين.

ولم يكن أهل حلب سلبيين في الأحداث، وإنما وقفوا مع المماليك في بادئ الأمر ضد الأعداء والأخطار الخارجية والداخلية، واستمروا في ذلك إلى أن طفح الكيل في أواخر الدولة المملوكية، فقلبوا لهم ظهر المجن وفضلوا العثمانيين عليهم ورفعوا راياتها فوق أسوار مدينتهم سنة 922هـ بعد معركة مرج دابق التي أنهت الدولة المملوكية في الشام والجزيرة العربية وكانت سبباً رئيساً لإنهائها تماماً في مصر بعد سنة واحدة فقط.

أما الحياة الاقتصادية في حلب بخاصة وفي السلطنة بعامة فقد نشطت في زمن المماليك على الرغم من الحروب والاضطرابات والفتن، وازدهرت ازدهاراً فائقاً في هذا العصر، وذلك لأن مصر وسورية كانتا لا تزالان حتى ذلك الحين واقعتين على طريق التجارة الهندية الغنية التي نهضت بعبئها جمهوريات إيطاليا التجارية، وكان كثير من هذه التجارة يمر في حلب، الأمر الذي جعل للتجارة أثراً كبيراً في حياة أهل حلب وفي أحوال معيشتهم.

وأما بالنسبة إلى اختياري كتاب الدرّ المنتخب في تكملة تاريخ حلب لابن خطيب الناصرية فثمة أسباب عدة دفعتني إلى ذلك، لعل أهمها:

اعتزازي وحبي لمدينتي حلب الشهباء أقدم مدينة مأهولة في العالم وأعرقها.

أنني منذ بدء دراستي العليا في بداية سبعينيات القرن العشرين بجامعة الإسكندرية اخترت أن أشرف بخدمة مدينتي حلب الشهباء، لعلي أوفّيها بعض حقها علي، ولأن أهل حلب أدرى بشعابها، فكانت رسالتي للماجستير (الحركة الشعرية في حلب زمن الأيوبيين)، وللدكتوراه (الحركة الشعرية في حلب زمن المماليك)، ولقد شجعني على ذلك أستاذاي اللذان أشرفا عليهما، وهما الأستاذ الدكتور محمد زغلول سلام والأستاذ الدكتور محمد مصطفى هدارة -رحمهما الله تعالى رحمة واسعة- ثم جعلت جلَّ الكتب التي ألفتها أو حققتها أو الأبحاث التي كتبتها ونشرتها عن أعلام حلب مثل أبي فراس الحمداني وابن الوردي، أو الذين استوطنوها أو عاشوا فيها زمناً طويلاً مثل ابن جني وابن شداد وابن جابر الأندلسي وأبي جعفر الغرناطي وغيرهم.

أهمية كتاب الدرّ المنتخب في تكملة تاريخ حلب، لأنه يُعد واحداً من أهم الكتب التي أرخت لحلب بعد كتاب بغية الطلب لابن العديم، إن لم نقل أهمها. عزوف المحققين عن تحقيقه لكبر حجمه وصعوبة العمل فيه وعدم وجود نسخ كاملة له.

وهذه الكتب الاربعة المتصلة مباشرة بمدينة حلب وتاريخها وحياتها السياسية والاقتصادية والثقافية والاجتماعية، لا تعني أن الصديق الدكتور الهيب ليس له كتب أخرى، وإنما حرصنا على موافقة ما اخترناه لعنوان الدراسة: حلب والدكتور أحمد فوزي الهيب.

رحمه الله رحمة واسعة كان رحيله خسارة لنا جميعاً على المستوى الأكاديمي والبحثي والثقافي والتعليمي والعربي.

المراجع:

- أحمد فوزي الهيب،2006، الحركة الشعرية زمن الأيوبيين في حلب الشهباء، الطبعة الثانية، الناشر: الأمانة العامة لحلب عاصمة الثقافة الإسلامية مطبعة جامعة حلب.
- أحمد فوزي الهيب،2006، الحركة الشعرية زمن المماليك في حلب الشهباء، الطبعة الثانية، الناشر: الأمانة العامة لحلب عاصمة الثقافة الإسلامية مطبعة جامعة حلب
- أحمد فوزي الهيب، 2010، (تحقيق): ديوان ابن الوردي، الطبعة الثانية: الدار العامرة/ دمشق
- أحمد فوزي الهيب، 2018 ، (تحقيق):الدرّ المنتخب في تكملة تاريخ حلب لابن خطيب الناصرية الحلبي مؤسسة عبد العزيز سعود البابطين الثقافية/ الكويت